ISSN: 2170 -1822
EISSN: 2600-6189

إشكالية المعنى في علوم الإنسان بين الفهم والتفسير

رباني الحاج جامعة معسكر، elhadj.rebani@univ-mascara.dz

تاريخ الإرسال: 2018/04/10؛ تاريخ القبول: 2018/06/01

الملخص:

لقد شهد العصر الحديث تطورا علميا شاملا، حيث أصبح العلم أكثر قوة بالمقارنة مع المجالات الأخرى، النفسية والاجتماعية والفلسفية.

لهذا السبب، نريد معالجة إشكالية المنهج في العلوم الإنسانية والاجتماعية، إلى جانب ذلك؛ نتساءل عن مدى إمكانية قدرتنا على إنتاج المعنى بطريقة موضوعية في هذا الحقل من العلوم الذي تكون الذات الباحثة عن المعنى دارسة ومدروسة في الوقت نفسه. وهذا ما سيكون من خلال نماذج مختلفة نتطرق إليها في هذه الدراسة.

الكلمات المفتاحية: المعنى؛ الموضوعية؛ الذاتية؛ المنهج؛ علوم المجتمع.

Abstract: The modern era has experienced a total scientific evolution, where science becoming too much power in comparison with other fields. In spite of that, the problematic of method, theory and meaning still remains unanswered with no exact responce, namely in the objectivity of the result in the field of humanities and social sciences, and whether it accepts a scientific and objective explanation, or it may considered as signals of self

ISSN: 2170 -1822
EISSN: 2600-6189

study presence.

For these reason, we want to investigate the subject of method in humanities and social sciences, besides; the process of meaning production in objective manner.

Keywords: meaning; method; objectivity; social sciences; subjectivity.

مقدمة:

من السهل أن تتعرض علوم الإنسان إلى النقد الذي ما فتئ يوجهه لها بعض أنصار المعرفة الإستعمالية أو التطبيقية التي لا تحتاج إلى برهنة منطلقاتها لأن نتائجها واضحة، لكن وصول هذه النزعة الأخيرة بالإنسان إلى طريق مسدود، أعطى للعلوم الإنسانية أهميتها المستمدة من ضرورة الحفاظ على العلاقة الجدلية بينه ككائن مفكر وبين المعارف التي يتوصل إليها، وبالتالي أخذ المآل الذي تنتهي إليه هذه العلاقة بعين الإعتبار، وهو ما يجعل سؤال المعنى سؤالا لا يقل أهمية عن سؤال المصلحة أو المنفعة بمعناها الواسع، وذلك لأن المعارف ليست مجرد أدوات للعمل وإنما هي معاني ودلالات للحياة التي نحياها، ومنه فإن رصد المعلومات والمعطيات ليس رصدا خارجيا فحسب بل هو رصد داخلي أيضا مما يجعل إشكالية المعنى في العلوم الإجتماعية أكثر إلتباسا وتوترا، حيث لا ينفصل ما نعرفه عما نفكر فيه ولا ينفصل ما نفكر فيه عما نعرفه أي عما تلقيناه، وهو ما يؤدي إلى تدخل ذاتيتنا في موضوع البحث وهكذا يكون من الصعب الحديث عن قطيعة إبستمولوجية بين

ISSN: 2170 -1822
EISSN: 2600-6189

الذات الباحثة والموضوع المبحوث ولا يبقى أمامنا إلا أن نكون على وعي بتلك العلاقة المتشابكة التي نجد أنفسنا أمامها مما يضطرنا إلى التعامل مع موضوع البحث من زوايا مختلفة وذلك باستعمال مناهج متباينة كالفهم والتفسير آخذين بعين الإعتبار أننا أمام حقل معرفي متعدد الأبعاد والدلالات ذات المعاني المختلفة.

ليست إشكالية المنهج جديدة في العلوم الإنسانية، قد أثار أرسطو هذه المشكلة منذ أن قام بتصنيفه الشهير للعلوم، فقسمها إلى علوم نظرية وعلوم عملية وعلوم إنتاجية، وتنبه إلى ضرورة التمييز بين هذه العلوم إستنادا إلى طبيعة المناهج الملائمة لكل منها، فما يلائم العلوم النظرية لا ينسجم بصورة تلقائية مع ما تتطلبه العلوم العملية أو الحكمة العملية، وإذا كان العقل يكفي لإقامة صرح المعارف النظرية القائمة على الضرورة المنطقية، فإن المعارف العملية تتطلب شكلا آخر من النظر هو الروية وبالتالي فهي تخضع للتقدير والتمييز وهذا مرتبط بالخبرة الذاتية والقدرة على الفهم وليس مرتبطا بالبرهان العقلي والقياس المنطقي، رغم الإنتباه المبكر لهذه الإشكالية إلا أن العصر الحديث المهوس بالتفكير المنهجي سلط عليها الضوء بشكل أكثر وضوحا، فمنذ اللحظة الديكارتية التي أعادت للذات الإنسانية إعتبارها وحضورها في صورتها العقلية، تبلورت نظرة موازية أضفت على تلك الذات صبغة تجريبية، متخذة من العلوم الطبيعية والرياضية نموذجا لها، وهكذا أريد للحياة الإنسانية أن تكون موضوعا للملاحظة والتجربة بدل بقاءها مضمرة في الأنا المتمثلة لذاتها بطريقة متعالية، هذا ما فتح الباب لإثراء

ISSN: 2170 -1822
EISSN: 2600-6189

حقل العلوم الإنسانية منهجيا وبالتالي معرفيا، فوجدنا أنفسنا أمام مناهج تنتصر للفهم و أخرى تنتصر للتفسير.

كثيرا ما إرتبطت مشكلة المعرفة في العلوم الإنسانية بثنائية صارمة لا صلة بين طرفيها، ثنائية الذاتية التي ترى أن موضوعها هو الذات والموضوعية التي ترى أن موضوعها مستقل عن كل ماهو متعلق بما هو ذاتي، وهو ما اختزل المشكلة إلى درجة جعلها بسيطة وسطحية والطريق إلى وجود حل لها أسهل وأوضح، لكن سرعان ما تكشفت عيوب تلك الثنائية وبات من الضروري الإقرار بلا كفايتها، فظهر فلاسفة ومفكرون أدركوا صعوبة الموقف وراحوا منشغلين بسؤال آخر في العلوم الإجتماعية هو سؤال المعنى. هذا ما نود مناقشته من خلال هذه الورقة على ضوء الإشكالية التالية:

هل المعنى في العلوم الإنسانية مشروط بالتفسير العلمي الموضوعي أم أنه قائم على الفهم الذاتي؟

1-دلتاي من خلال غادامير:

كان من أوائل هؤلاء المفكرين دلتاي (1833 – 1911) الذي ينتمي إلى تراث الفهم، إنطلاقا من تصوره لأهمية الحياة في دراسة الظواهر الإنسانية، والتي تجعلنا " نفهم أكثر مما نعرف " (غادامير هانز جورج، 2007: 28). فلا نحصل على المعرفة إلا من خلال عملية الفهم وذلك بفضل القدرة على معايشة موضوع الدراسة إنطلاقا من التواصل الذي تتيحه لنا الخبرة الحياتية، التي تشكل الأرضية الحقيقية

ISSN: 2170 -1822
EISSN: 2600-6189

لكل معرفة سليمة، معرفة تنظر إلى الحياة كوحدة تسعى إلى تضمين اللامتناهي في المتناهي، لتكون أكثر تعبيرا عن الحياة كخبرة أي الحياة كفعل وكمعطى، من هنا يحتل مفهوم الخبرة مكانة أساسية عند دلتاي، وهو يتضمن بوضوح عنصرين " عنصر وحدة الوجود والعنصر الوضعي ، الخبرة Erlebinis ونتيجتها (Ergebnis) .ليس هذا من فعل المصادفة، بل هو نتيجة لموقع دلتاي الوسط بين النزعة التأملية والنزعة التجريبية " (غادامير هانز جورج، 2007: 126).

من الواضح أن دلتاي يفكر في سياق إشكالية ثنائية الذاتية و الموضوعية في العلوم الإنسانية، ومن ثم يحاول أن " يدرك في مفهوم الخبرة الطبيعة الخاصة للمعطى، ويضفي متبعا صياغة ديكارت للكوجيتو، على مفهوم الخبرة سمة الإرتداد والإنعكاس إلى الداخل، وهو يحاول على أساس هذا النمط الخاص من المعطى أن يشيد تسويغا إبستمولوجيا لمعرفة العالم التاريخي"(غادامير هانز جورج، 2007: 127،126).

وهكذا نلمس في هذا الإستعمال الإبستمولوجي لمفهوم الخبرة محاولة منهجية لحل مشكلة معرفية مرتبطة بالوعي المعطى، إذ تتجه الأنا إلى الداخل بطريقة إرتدادية وإنعكاسية بدل إتجاهها إلى الخارج، و يشكل الوعي مسألة محورية هنا لأن علوم المجتمع والإنسان " نمت وتطورت في ظل الممارسة الحياتية أي أن موضوعها ليس الطبيعة التي بقيت متماهية مع ذاتها لأنها خاضعة لقوانين ثابتة، وإنما مجموع من

ISSN: 2170 -1822
EISSN: 2600-6189

المرجعيات والإتفاقات التي يجب على الإنسان وضعها قبل أن ينشغل بالعلم ". (Julien freund, 1973 : 28)

فالإنسان لم يخلق الطبيعة لكنه يخلق العالم الإجتماعي، فهو على صلة بالجانب التأملي والجانب التجريبي على حد سواء ، ولذلك فإن دلتاي ركز على فكرة الحياة في نظريته حول المعرفة آخدا في الإعتبار الرغبة الإنسانية والفكر والحس " فالعقل والحس كلاهما مظاهر للنشاط الإنساني. نقد التأملات الميتافيزيقية على أسس تجريبية بالرغم من أهمية الميتافيزيقا في تكوين تصورات العالم. كما نقد التجارب الحسية على أسس عقلية بالرغم من أهمية هذه التجارب في الكشف عن الحياة " (حنفي حسن، 1992: 345).

كان سعي دلتاي هذا يهدف بصورة أساسية إلى إرساء إبستمولوجية منطلقها الأساسي هو فلسفة الحياة التي تقوم على دراسة التجارب الحية لذلك يبدوا إستعماله لمفهوم « الخبرة » بدل مفهوم « الحس » إستعمالا دقيقا إذ أن ما يقرر مفهوم الخبرة هو " أن بنية المعنى التي نجدها في العلوم الإنسانية – مهما بدت لنا غريبة ومبهمة – قد تعود إلى الوحدات الرئيسية لما هو معطى في الوعي، في الوحدات التي لم تعد تتضمن بذاتها أي شيء غريب، أو موضوعي، أو أنها بحاجة إلى تأويل. إن وحدات الخبرة هذه نفسها وحدات المعنى " (غادامير هانز جورج، 2007: 127).

إن الخبرة كمعطى أساسي هي ما يزودنا بالمعنى، و الخبرة هنا هي ما نمتلكه من وعي حول ذاتنا و حول ذوات الآخرين، وإذ لم يحصل

ISSN: 2170 -1822
EISSN: 2600-6189

ذلك الإمتلاك من حدوث خبرات فعلية فهو قابل للتحصيل من خلال خبرات هي لنا بالقوة، مما يسهل علينا فهم تلك الخبرات فهما موضوعيا وإلا تعذر الفهم تماما، ويلخص دلتاي المسألة كلها في عبارته"إن ما هو معطى باستمرار تعبيرات الحياة، ولأنها تظهر في عالم الحواس، فإنها تكون باستمرار تعبيرات عن عقل تساعدنا على فهمه" (سيد احمد محمود، 2005: 31).

لا يتصور دلتاي وجود عقل نظري خالص، بل يرى أن العقل هو ما نستطيع أن نكشف عنه من خلال التعبيرات المختلفة الموجودة في عالم الحس كالفن والدين والفلسفة واللغة والأعراف والقوانين، وبتعبير آخر إن " تعبيرات الحياة الفردية التي تواجه الذات التي تقوم بالفهم، يمكن أن ننظر إليها على أنها تنتمي إلى مجال مشترك إلى نمط Type، والعلاقة بين تعبير من تعبيرات الحياة وعالم العقل بداخل هذا المجال لا تضع فحسب التعبير بداخل سياقه، ولكن تدعم أيضا المضمون العقلي الذي ينتمي إليه، فالجملة تكون مفهومة لأن اللغة ومعنى الكلمات بالإضافة إلى مغزى الترتيبات النحوية يكون مشتركا بالنسبة للمجتمع" (سيد احمد محمود، 2005: 35).

يشترط دلتاي الثقافة المشتركة كأساس للحديث عن إمكانية تحقق الفهم، لذلك تبدوا علوم الإنسان والمجتمع له كعلوم للثقافة وللروح وهذا يعني أن العقل ليس أكثر من معطى ثقافي محدد والفهم لا يكون ممكنا إلا في سياق هذا المعطى،

ISSN: 2170 -1822
EISSN: 2600-6189

وبالتالي فالذات الفاهمة ليست ذاتا مستقلة عن قواعد حياة المجتمع الموجودة فيه، لذلك تكون الحياة هي موضوع المعرفة والفهم هو المنهج الملائم شريطة إستناده إلى الخبرات كواسطة لتحصيل المعرفة وذلك بإعتبار تلك الخبرات عبارة عن خبرات مشتركة تؤدي إلى الكشف عن المعنى المقصود الذي يشكله الإطار العام للمجتمع، الشيء الذي يعكس وحدة الحياة نتيجة لوحدة نموذج الفهم المستمد من وحدة النمودج الثقافي للمجتمع وهكذا يتخد الفهم معنى علاقة الذات بأصولها وجذورها والتي تستقي منها نظام المعنى وكأننا أمام بنية فهم مسبقة. وعليه " فالواقعة هنا في علوم الإنسان فيها عمليات معينة داخل عالم الخبرة العادية تنبع من حياة عقلية، حقيقة لا نعرفها عن طريق الإستدلال بل ندركها، فنحن ندرك الحياة في تعبيراتها كما نقرأ المعنى في نص مكتوب، إننا في كل مكان " نفهم " أكثر مما "نفسر " (بوزيد بومدين، 2008: 97).

بهذا المعنى يكاد مفهوم الفهم يكون مطابقا لمفهوم الذات الواعية بخبراتها التي عايشتها في الحياة الإنسانية والإجتماعية، أي كذات منخرطة في خطة حياة وليس كذات متأملة لأفعال الفكر فقط، لكن هذه سرعان ما تعرضت لشكوك من زوايا مختلفة إجتماعية وأخلاقية (قيمية) وسيكولوجية وذلك ما قام بالعمل على توضيحه كل من ماركس ونيتشه وفرويد على التوالي، ومن دون شك أن أعمال هؤلاء الثلاثة كان لها أثر كبير على المشتغلين بحقل العلوم الإنسانية

ISSN: 2170 -1822
EISSN: 2600-6189

والإجتماعية بفضل عمق ورصانة وقوة الأطروحات التي كشفت عنها والتي كان لهم السبق فيها.

2- ماركس ونقد المجتمع:

إننا عندما نتأمل اليوم حضور الفكر الماركسي في حياتنا الثقافية والعلمية نجده مختزلا في جانبه الإيديولوجي ومهمشا أو غير متفحص في جانبه المنهجي أي في جانبه الفلسفي والمعرفي، حيث أرسى ماركس قواعد منهج نقدي لدراسة الحياة الإجتماعية أدت إلى التفكير في موضوعه بطريقة سمحت له باكتشاف تاريخيته، وهو ما جعله يضع المجتمع في التاريخ ويتجاوز الجدل الفكري إلى الجدل التاريخي وبالتالي يكشف عما وراء الوعي الظاهر الذي يقوم على الموقف الإيديولوجي ذو الطبيعة التبريرية والدفاعية المتخفية وراء الحقيقة الموضوعية المتجاهلة لعواملها الذاتية، هذا الكشف النقدي أدى إلى نقل الحقيقة والمعنى من حالة البراءة والتقديس إلى حالة الشك والإباحة، وعليه فالوصول إلى الحقيقة يمر عبر الطريقة التي ننتج بها المعنى وهي التأويل بمعنى تشغيل آليات القراءة والفهم، أي العودة إلى الأصل وإرساء قواعده وفقا لمساره الإجتماعي في التاريخ ومنه البحث عن المعنى في الواقع الإجتماعي بدل البحث عنه في الذات المنشغلة بالبحث عن هويتها وهو ما يؤدي بنا إلى الكشف عن الذاتية المتخفية وراء وهم الموضوعية المتسترة المزعومة، وهكذا نجد أنفسنا أمام تصور جديد للموضوعية يقوم على الإختلاف و الصراع ويسمح بكشف التناقضات.

ISSN: 2170 -1822
EISSN: 2600-6189

3- نيتشه ونقد الخطاب الفلسفي:

بعد أن غير كارل ماركس تغييرا عميقا في كيفية التعاطي مع الحقيقة الإجتماعية ونقلها من الطرح الإيديولوجي والنزعة التبريرية إلى الطرح التاريخي و النزعة النقدية، جاء دور نيتشه (1844-1900) ليذهب أبعد من ذلك فينقل الشك من مجال الوجود الإجتماعي إلى مجال الوعي بالذات وهو ما انتهى به إلى تدمير كل طريقة توحي بأن غايتها هي الوصول إلى الحقيقة الموضوعية أو المثالية في أي شكل من أشكالها، فليس هناك نموذج للحقيقة يتم النسج على منواله وليست الحقيقة غاية نسعى إلى تحقيقها أو الكشف عنها، «ليس الأمر لا واقعة و لا نصا، إنما هو تنسيق إنساني ساذج للوقائع، قتل للمعنى، مدح مجامل للغرائز الديمقراطية للنفس الحديثة ...قد يأتي أحد ما، مسلحا بقصدية معارضة وببراعات تأويل مغايرة، ويكشف في الطبيعة ذاتها وانطلاقا من الظواهر نفسها عن إنتصار الإرادات الطاغية العنيف والقاسي، وسيوضح لكم هذا المؤول الجديد " إرادة القوة " في حقيقتها الكونية وفي مطلقيتها، إلى درجة أن كل الكلمات تغدو تقريبا غير قابلة للإستعمال، وحتى كلمة « طغيان » ستبدو لكم تورية وتلطيفا واستعارة مفرطة في الإنسانية ﴾ (نيتشه فدريك،2006: 34، 35).

ينظر نيتشه إلى الحقيقة أنها ليست أكثر من وجهة نظر، وأنها ثمرة تأويلنا لإرادة القوة، فهي ما ننتجه خدمة لإرادتنا في بلوغ القوة، ونحن لا ننتج إلا ما نحتاج إليه، إننا نعطي للحقيقة المعنى الذي نريده لا

ISSN: 2170 -1822
EISSN: 2600-6189

المعنى الذي ينبغي أن يكون أو الذي هو كائن، فيقول " إن عدم الرضى عن العالم الذي اعتقدنا أننا نعرفه يغذي الشعور بالقلق، بينما تفصح القيم، التي سيطرت على معرفة الفرد ووجوده، عن أنها تستند إلى العدم مما يفقدها معناها " (نيتشه فدريك، 2006: 34، 35)

فالوجود المرتبط بالقيم هو عبارة عن عدم لأنه وجود خال من القلق وفاقد للشك ومدع للمعرفة وعائق أمامها، وذلك لإبتعاده عن الذات والفصل بينها وبين حياتها وحيويتها وعدم الانشغال بإرادتها، من وجهة نظر الحياة هذه، ومن أجلها جاءت "دعوة نيتشه الفيلسوف ليسلك طريق الفن ضد العلم. بمعنى أنه طلب السيطرة على العلم بالفن الذي وحده يحقق مهمات الفلاسفة. إن إدانة نيتشه لغريزة المعرفة التي يصفها بالعمياء والدنيئة، تكشف عن أن العلوم تؤدي إلى آثار بربرية عندما تضيع بسهولة في خدمة مصالح عملية " (شعبان وفاء، 2007: 97).

نفهم مما تقدم أن رؤية نيتشه تتجه إلى نفي كل تبرير موضوعي أو نفعي للمعرفة، بل إلى نفي كل منطق تبريري للمعرفة سواء أكان ذاتيا أم موضوعيا، إذ لا معنى للمطابقة بين المعرفة والذات، كما أنه لا معنى للمطابقة بين المعرفة والموضوع، لأن المعرفة ليست وليدة منهج وإنما هي وليدة مغامرة ومخاطرة، إنها إرتياد المجهول إنطلاقا من المجهول، ولهذا " فمقارنة مع العبقري الذي خلق ليولد وينجب، بالمعنى القوي للكلمتين، فإن العالم، إنسان العلم، يشبه من بعض الوجوه العانس

ISSN: 2170 -1822
EISSN: 2600-6189

دائما، لأنه يجهل مثلها أثمن وظيفتي الكائن البشري. ويقر الإنسان لهؤلاء وأولئك، للعلماء والعوانس، بنوع من التقدير كتعويض، ويلح على التقدير الذي يستحقونه، ويصاحب هذا التسامح المفروض في الحالتين معا بقدر من الإمتعاض" (شعبان وفاء، 2007: 79)

يتنكر نيتشه لكل معرفة ترتد إلى الوراء متخفية وراء القيم أو وراء العلم، وينتصر لمعرفة تسري في عروقها دماء الحياة ولا تبالي بما ستؤول إليه وتستعد باستمرار للإنقلاب على حقيقتها من أجل استبدالها بكشف جديد، وربما الإستغناء عنها دون البحث عن بديل لها ودون الحنين إليها، فالمعرفة الحقيقية هي وليدة الإنتشاء في عز المأساة، إنها معرفة بدون ذات ولا موضوع، قائمة على الشك إلى حد جعله يقينا، كما أنها واثقة من نفسها إلى الحد الذي تستعد فيه لتبديد كل شك، ولذلك فهي تشكك في الشك مثلما تشكك في اليقين فلا الشك عقيدة ولا اليقين عقيدة، على المعرفة في نظر نيتشه أن تقوم على الشك الكامل: أي على منطق الاختلاف وبالتالي على مبدأ التأويل الذي لا بديل عنه في إنتاجنا لإرادة الحياة التي بمقدار ماهي بين أيدينا بمقدار ما أنها تتجاوزنا وربما تهددنا إننا مثل الذي يقف على رمال متحركة في نظر نيتشه.

4- فرويد والتحليل النفسي:

هذا ما سيفضي بنا إلى الوقوف على الكشف الكبير الذي أعلنه سيغموند فرويد (1856 -1939)، فبعد أن قوض نيتشه جدار اللغة

ISSN: 2170 -1822
EISSN: 2600-6189

وحرر المعنى من سلطتها، يأتي هو ليربك الأنا فينقلها من الشعور إلى اللاشعور ويجعلها مشدودة إلى الشعور لكنها رغم ذلك فهي واقعة تحت سلطة اللاشعور، وهذا ما كان كشفا معرفيا نستطيع القول أنه أسس لنظرة جديدة إلى حد كبير في العلوم الإجتماعية والإنسانية. من المعروف أن الذات قبل إكتشاف التحليل النفسي كانت متمحورة حول الوعي الذي لطالما ظهر أنه شفاف ومنبثق عن ذاته ومصدر لإنارتها معرفيا، إلا أن اكتشاف اللاوعي أزاح الوعي عن سلطته وهو ما شكل أفقا جديدا للفهم وحاجة ماسة إلى التأويل وانعتاقا من هيمنة التفسير، لذلك فإن معالجة الذات في تركيبتها اللاشعورية، لم يسبق طرحها بالشكل الذي اكتشفه فرويد في العصور التاريخية السابقة إذ أن "التركيز الفلسفي والسيكولوجي كان منصبا على الأنا في تحولاتها المستمرة، وفي كيفية معالجة الإنسان لموقعها عبر العلوم السائدة، وطرق إدراكها لذاتها ... ولكن لا شيء يشير إلى كيفية هذا الإدراك، وإلى مصدر الفكر، أو هل أن الحالة المثلى للإدراك التاريخاني هي عملية تحقيقية، أو مجرد هوام يخضع للطموحات المثالية" (نيتشه فدريك، 2006: 114).

إن التفكير في الذات باعتبارها أنا لم يسمح بالتفكير فيها خارج ما ترسمه لها تلك الأنا، وهو ما يعني أن الذات كانت محصورة دائما وباستمرار في بعد واحد كالوعي أو العقل أو التاريخ مما جعلها تتجه إلى الإنغلاق على ذاتها المتعالية غير القابلة للمساءلة أو المراجعة أو النقد وبالتالي الشك في إمكانية تحققها في ما تحيل إليه من غايات تنظر من خلالها إلى ماهيتها، هذا ما جعلها تنظر إلى العالم من خلال أنا تملك

ISSN: 2170 -1822
EISSN: 2600-6189

إرادة غير مشروطة مدعومة بوعي خالص يقوم على اختزال الذات في الأنا والمطابقة بينهما بشكل كامل.

أدى التحليل النفسي إلى تقويض هذه العلاقة القائمة على المطابقة، فأدى ذلك إلى إكتشاف أزمة الوعي ومأساة تشظيه وانقسامه على ذاته، وهو ما وجه ضربة قاصمة إلى الأنا المسترسلة في وعيها حيث ظهر أنها تمت بالشيء الكثير إلى لا وعيها الذي يمثل وعيها الحقيقي، كما تبين لها أن ما كانت تراه وعيا خالصا أصيلا ليس إلا وعيا زائفا وعائقا يحيل بينها وبين الوصول إلى إدراكها لوعيها الحقيقي المنبثق من لا شعورها و هكذا تم الإنتقال من الظاهر إلى الباطن، ومن التفسير إلى التأويل، ومن تفسير السلوك إلى تأويل الرغبة .

ليست الذات هي ما ينعكس في نرجسيتها، هذا ما أسفر عنه التحليل النفسي الذي شكل إهانة للذات ونقدا لاذعا للأنا المتناسية لغيريتها، المتنكرة لحقيقتها، المنصرفة إلى وعيها الميتافيزيقي الموجه بوهم الحقيقة المطلقة بدل الإنفتاح على رهانات المعرفة، وهذا يعني أن فرويد يميز بين تحقيق الذات من خلال إختزالها في الأنا الواعية لذاتها بشكل كامل وبين معرفة الذات من خلال إنفتاحها على حقيقتها التي تصنع وعيها، أي من خلال الحد من نرجسيتها التي تؤسس لنظرة وثوقية تؤدي إلى الإطمئنان إلى وعي فاقد لوعيه. وعي عاجز عن وعي شروطه مما يجعل مهمته في التمييز بين الوهمي والحقيقي مهمة غائبة عن أفقه، وإن كانت حاضرة، فحضورها مزيف ومغلف بالوعي الزائف، لذلك

ISSN: 2170 -1822
EISSN: 2600-6189

لا تكون أكثر من مصادرة على المطلوب، واستجابة لطلب يفرضه نظام الحقيقة المنبثق عن وعي سابق عن ذاته، لذلك يوجهها دون أن ينعكس ذلك على حقيقته المطلقة، فهو يفسر دون أن يفسر، ويشكك دون أن يخضع ذاته للشك لأنه يتصور أنه مدرك لكل مساحات الوعي.

بعدما أزيح الإنسان عن مركز الكون وبعد أن عقد رابطة صلة مع الحيوان وذلك على يد كل من كوبرنيك وتشارلز داروين على التوالي، جاء دور الإهانة النفسانية على يد فرويد، إذ أن الإنسان الذي كان يعلم من قبل بأنه ليس سيد الكون ، ولا سيد الأحياء، قد اكتشف بأنه ليس سيدا حتى لنفسه. لذلك فالتحليل النفسي يتجه بخطابه إلى الأنا : "أنت تعتقد أنك تعرف كل ما يجري في نفسك، منذ اللحظة التي يكون فيها ذلك مهما بما فيه الكفاية، وذلك لأن وعيك يعلمك إياه حينئذ وإنك عندما تبقى من غير معلومة عن شيء قائم في روحك، فإنك تقبل، باطمئنان تام، بأن ذلك الشيء لا يوجد فيها. بل إنك لتذهب إلى الزعم بأن « النفس »متطابقة مع " الوعي " أي إنك تعرف هذا، ويحصل هذا بالرغم من البراهين الأكثر بداهة بأنه لا بد أن تحدث في حياتك النفسية أشياء كثيرة يمكنها ألا تنكشف إلى وعيك فدع نفسك إذن تستعلم حول هذه النقطة " (حب الله عدنان، د.س: 56).

هكذا ينقل فرويد الذات من الوعي إلى الوقائع ليخلصها من استلاب الأنا وسلطته عليها، فيؤكد على موضوعيتها المنعكسة في أمانيها ورغباتها، وهو يعني أن العلاقة بين الذات والأنا علاقة مترابطة

ISSN: 2170 -1822
EISSN: 2600-6189

ومتشابكة ولا يمكن الفصل بينهما، هذا ما يؤكده فرويد قائلا "إن جزءا من الأنا يبقى لا شعوريا، وإن الأنا الأعلى يحمل بأحكامه القاسية واللوامة على الأنا، إنطلاقا من معرفة مسبقة بإحتواء هذه الأخيرة لرغبات محرمة وهذا ما يدعوا إلى الإعتقاد في إنشطار الأنا على نفسها في قسمين: شعوري ولاشعوري، منذ أن بدأ الإنسان يتكلم ويحاول التعبير عن حاجاته في الألفاظ الكلامية ". (ريكور بول، 2005: 196، 195).

إن هذا يعني أن اللغة هي التي تكشف عن هذا الإنشطار بإرسائها لقواعد المنع المؤدي إلى الكبت، وهي الجسر الذي يكشف عن تلك العلاقة المتشابكة بين الذات والأنا والتي هي علاقة صراع لرغبات متعارضة تكبح فيها الأنا جموح الذات لكن هذه الأخيرة ترفض الاستسلام والانصياع مما يؤدي بالأنا إلى البحث عن حل لهذا الصراع فيكون ذلك من خلال العمل على شرعنة رغبات تلك الذات ولا يكون ذلك إلا بإشباع ميولاتها المكبوتة لكن سرعان ما تكتشف الأنا أنها رغبات لا متناهية متجذرة في الطبيعة البشرية وأنها نفسها ليست في منأى عنها بل هي تعبير عنها في شكل وعي إذ ليس الوعي إلا مجموعة الرغبات التي نريد إشباعها والتي تضغط علينا باستمرار ودون وعي منا لأنها رغبات لا شعورية، وبما أنها ذات طبيعة لا شعورية فإننا عاجزين عن الإمساك بها تماما، لذلك فإنه لا يبقى أمامنا إلا أن نتذكر باستمرار مسار حياتنا الذي لم يعد بأيدينا أي لا يمكننا ملاحظته لكننا نلمسه حضوره من خلال آثاره، وبما أن الآثار تحيل إلى الغياب فإننا نجد أنفسنا مضطرين للتأويل الذي يمثل جسرا غير مباشر بيننا وبين وعينا، ومن

ISSN: 2170 -1822
EISSN: 2600-6189

دون شك أنه إذا كان لابد لنا من واسطة بيننا وبين ذواتنا فستكون اللغة هي تلك الواسطة، " فاللغة كما يقول جاك لاكان LACAN . J هي شرط اللاشعور، فاللاشعور هو الحصيلة المنطقية للغة : لا يوجد بالفعل لا شعور من دون لغة " (حب الله عدنان، د.س: 118).

هكذا ينزاح الوعي من الفكر والسلوك إلى اللغة واللاشعور كما ينزاح من التأمل والتجربة إلى الإستبطان والتأويل.

خاتمة:

في الأخير يمكننا القول أن إشكالية المعنى في العلوم الإجتماعية والإنسانية هي إشكالية مرتبطة بالجدل القائم حول طبيعة هذه العلوم فيما يتعلق بموضوعها ومنهجها، أما نحن فقد حاولنا أن نتطرق لإشكالية المعنى من خلال نماذج كان لها صدى في مجال هذه العلوم، بل اهتمت بمشكلة الحقيقة ومشكلة المنهج بشكل مباشر وصريح وقدمت مساهمات غيرت كثيرا في خارطة المعرفة الإجتماعية والإنسانية، فإذا كان دلتاي أسس لفكرة التأويل من خلال نزوله بالوعي إلى صميم الحياة باحثا عن روحها وعن معناها محاولا الوصول إلى ذلك المعنى من خلال فهم الحياة باعتبارها فضاء التجربة الإنسانية الذي لا حدود له، وبالتالي فهم الإنسان في تاريخيته والنظر إليه ككائن تاريخي أي ككائن فاعل ومنفعل خاضع للتغير الداخلي والخارجي في الوقت نفسه ومنخرط في إنتاج المعنى، لذلك تصور أن الفهم نعني به " العملية التي بواسطتها نعرف شيئا ما عبر العلامات المحسوسة التي تكشف عنه"

ISSN: 2170 -1822
EISSN: 2600-6189

(حب الله عدنان، د.س: 119) وبهذا حاول أن يتجاوز ثنائية الفكر والواقع بواسطة تغييره لموضوع المعرفة الذي جعله متمثلا في الحياة ذاتها ومنهج دارستها هو الفهم. فالعلوم الإجتماعية والإنسانية يرتبط فيها الوعي بالخبرة ومنهجها أقرب للفهم منه إلى التفسير وهي أقرب إلى علوم الثقافة والفكر أو الروح منها إلى علوم الطبيعة.

أما ماركس فقد حاول رفع الغطاء الذي يغلف الواقع ليكشف عن تناقضاته وصراعاته المتجذرة، فرأى أن تاريخ المجتمعات البشرية هو تاريخ الصراع الطبقي وذهب إلى تأويل المبادئ والمنطلقات التي يقوم عليها هذا الواقع فأعطى مفهوما جديدا للتاريخ إنطلاقا من تفسيره لذلك الواقع، والجدير بالإشارة هنا أننا حصرنا ماركس في منهجه التفسيري وألغينا منهج التأويل الذي أقام عليه فلسفته في التاريخ، ولولا وجود هذا الجانب التأويلي لما قامت تلك الفلسفة ولما ارتبطت كلمة ماركسية بكلمة نقد التي كثيرا ما توحي بإكتشاف البديل أي الوصول إلى الحقيقة وإدراك المعنى الحقيقي للتاريخ، خاصة وأن التاريخ أصبح الأفق الذي ينظر من خلاله إلى الحياة الإجتماعية والإنسانية، ورغم ما يطرحه التاريخ من مشكلات في علوم الإنسان والمجتمع من حيث موضوعيته وعلميته إلا أنه يظل في هذه العلوم مرتبط بالمعنى أكثر مما هو مرتبط بالقوانين الموضوعية ولذلك فالتاريخ والتأويل يستدعيان بعضهما البعض وفلسفة ماركس الإجتماعية في التاريخ تكاد لا تخفى على أحد وردود الفعل التي أثارتها منذ تبلورها في القرن 19م إلى يومنا هذا شاهد على مانقول.

ISSN: 2170 -1822
EISSN: 2600-6189

أما نيتشه فعمل على قلب القيم وتحطيم جدار اللغة بالكشف عن القيم الحقيقية التي قد تصل إلى حد التخلي عن القيم دون إعطاء قيمة لذلك والكشف عن زيف اللغة وعن الدور المتواطئ الذي تلعبه في تحريف المعنى وإخفاء الحقيقة ، لذلك رأى أن اللغة هي تعبير عن إرادة القوة وليس عن الحقيقة وهي في ذلك لا تختلف عن القيم وبذلك تصور نيتشه أن المعنى الحقيقي هو ذلك المعنى الذي يعبر عن الإرادة التي ترغب فيه، وما ترغب فيه الإرادة هو القوة وهكذا قام بتأويل المعنى أو الحقيقة لصالح الذات التي تريد القوة و تصور تلك الذات على أنها تعلو وتتفوق على كل شيء حتى على ذاتها وبالتالي تصل إلى المعنى الأكثر انخراطا في التجربة الوجودية للحياة.

أما فرويد، فقد شغله تحليل النفس من خلال إخضاعها لسيرورة الحياة المتأصلة في عنصر الرغبة، فاكتشف أن النفس ليست متطابقة مع الشعور بل هي ممتدة إلى اللاشعور و متجذرة فيه وهو الذي يحركها ويدفعها إلى التعبير عن ذاتها من خلاله بإشكال مختلفة ومتباينة، وبتأويلنا لما يأتينا من عالم اللاشعور نفهم وندرك ما يجري على مستوى الشعور أي إحالة الشعور إلى اللاشعور وهي عملية تأويلية استردادية.

إن مشكلة المعنى في علوم المجتمع والإنسان إنتقلت في مراحل صيرورتها من الميتافيزيقا إلى التحليل العلمي، لكن تاريخية هذه العلوم وارتباطها بالإنسان كفرد أو جماعة جعل هذا الإنتقال نسبيا، إذ كثيرا ما يتحول التحليل العلمي إلى فرض ميتافيزيقي غير مساير لحركية ظواهر

ISSN: 2170 -1822
EISSN: 2600-6189

الحياة الإجتماعية والإنسانية فتلجأ هذه الأخيرة إلى مناهج أخرى أكثر نجاعة وفعالية كالفهم والتأويل، باعتبارهما يتوافقان مع تاريخية التجربة الإنسانية.

المراجع باللغة العربية :

-بوزيد بومدين، (2008). الفهم والنص، دراسة في المنهج التأويلي عند شلاير ماخر وديلتاي، ط1، بيروت: الدار العربية للعلوم، منشورات الإختلاف.

-حنفي حسن، (1992). مقدمة في علم الإستغراب، ط1، بيروت: ،المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع.

-حب الله عدنان، التحليل النفسي من فرويد إلى لاكان، (د.ط)، بيروت: مركز الإنماء القومي.

-غادامير هانز جورج، (2007). الحقيقة والمنهج، الخطوط الأساسية لتأويلية فلسفية، ترجمة حسن ناظم وعلي حاكم صالح، مراجعة جورج كتوره، ط1،طرابلس: دار أويا.

-ريكور بول، (2005). صراع التأويلات دراسات هيرمينوطيقية، ترجمة منذر عياشي، مراجعة جورج زيناتي، ط1، بيروت: دار الكتاب الجديد المتحدة.

-سيد أحمد محمود، (2005). دلتاي وفلسفة الحياة، ط2، بيروت: دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع.

-شعبان وفاء. (2007). في الحاجة إلى الفلسفة، مجلة الفكر العربي المعاصر، العدد 140 – 141، بيروت، باريس.

ISSN: 2170 -1822
EISSN: 2600-6189

-نيتشه فريدريك، (2006). ما وراء الخير والشر، ترجمة حسان بورقية،(د.ط)، المغرب: أفريقيا الشرق.

باللغة الأجنبية:

- Julien Freund, (1973). Les Théories Des Sciences Humaines, paris : Presses Universitaire De France.